

الأدب الرقمي بين الانفتاح الإجناسي وأشكال القراءة

أ.مرازقة حنان

جامعة الحاج لخضر باتنة-1-

إن الأدب مثل الحياة يصيبه ما يصيبها من تطور، فقد ظهر في أواخر القرن العشرين مع التطور التكنولوجي وعصر العولمة أدب جديد موازي للأدب الورقي يعتمد على الوسائط التكنولوجية في بناء متنه؛ وهذا أدى إلى تداخل تقنيات الكتابة الفنية مع الأجناس الفنية الأخرى من رسم وموسيقى، ونحت... وذلك باستخدام التقنيات الحاسوبية في المزج بين هذه الفنون عن طريق الصوت والصورة والمونتاج والإضاءة... في إنتاج ما يسمى بالأدب الرقمي أو التفاعلي، كما أدى هذا الشكل الأدبي الجديد إلى اختلاف أشكال القراءة والتلقي، فكيف جسدت التكنولوجيا الحديثة تداخل الأجناس والفنون؟ وكيف ساهمت هذه التقنية تغيير موقع المتلقي من الهامش إلى المركز؟

الأدب الرقمي وانفتاح الأجناس

سعى النقاد منذ القدم إلى وضع القوانين والضوابط التي يتفرد بها كل جنس أدبي عن الآخر، غير أن هذه الضوابط والقوانين ضاعت مع تطور الأدب في عصر الحداثة وما بعدها مع ظهور التجريب الذي كسر القيود والحدود بين الأجناس الأدبية، فلم تعد الرواية أو الشعر... جنسا نقيًا متفردًا بخصائصه، فمع تقنيات التجريب نجد من خصائص الشعري في السرد كما نجد ما هو من خصائص السرد في الشعري، ومع ظهور الحاسوب والوسائط التكنولوجية التي استعان بها الأدب في تشكيل متنه وإدخال تقنيات وفنون جديدة على النص الأدبي " فتوظيف الأدب الرقمي لإمكانات الوسائط المتعدد يؤدي إلى إشكالية عسيرة في وضعه ضمن جنس أدبي معين، غير أن من المهم أن نتنبه إلى أن هذا الأمر يؤثر خلال في نظرية الأنواع الأدبية ذاتها، ولا يعني تجريد الأدب من أديته.

ومن المهم أن نلاحظ أن الأدب والفن الفطري في فجر التاريخ الإنساني كانا يعملان معا في مكان واحد، فالكتابة الأولى كانت صورية، مثل النقوش على جدران الكهوف كانت تمزج الصورة والكلمة المنظومة أو المنثورة.

ونرى أن نظرية الأنواع الأدبية تحتاج إلى صياغة جديدة، ليس فيما يتعلق بالأدب الرقمي فحسب، بل هناك أنواع أدبية أخرى بحاجة إلى تجنيس حتى لقد شاعت تسميات مثل (نص) أو (نصوص عابرة للأجناس) تعبيراً عن العجز عن تصنيفها.

وفي هذا الإطار أيضا قد يقال أم الأديب الذي يكتب الأدب الرقمي هو الآخر ليس أديبا فقط وإنما يجب أن يكون موسيقيا ورساما ونحاتا و... وهذا غير صحيح بالمرّة، فالصورة والصوت وعناصر مهمة من عملية التخيل التي يمارسها الأديب، وهو لن يحتاج إلى مهارات خاصة لتجسيد تلك العناصر، فكل ما يحتاجه هو معرفة بسيطة ببرامج معالجة الصورة و الأصوات الكومبيوترية...¹

"إن الأدب التفاعلي بأجناسه المختلفة، من شعر ورواية ومسرحية يمكن ملاحظة تداخل النصوص، إذ يستطيع الشاعر التفاعلي على سبيل المثال أن يستعين بنص شاعر آخر سابق له، كما يحدث في النصوص الورقية، لكنه في (الأدب التفاعلي) يستطيع أن يوظف صوت ذلك الشاعر، وأن يضمه نصه، لأن طبيعته تسمح له بتوظيف الصوت الحي، والأصوات الأخرى، الموسيقية أو الطبيعية أو غيرها في نصه، مما يعني أن عملية التداخل ستوسع في ضوء الأدب التفاعلي وستخرج من قمم النصوص المكتوبة إلى فضاء أكثر سعة ورحابة."²

¹ نائر عبد المجيد العذاري، الادب الرقمي والوعي الجمالي العربي، مجلة آداب الفراهيدي، ع:2، ص:86.

² -فاطمة البريكي، مدخل الى الادب التفاعلي، ط:1، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، 2006م، ص:181.

فبعدما كانت الكلمة هي المكون الرئيس وأساس العملية الإبداعية في الأدب الورقي، أصبحت في عصر التكنولوجيا مع الأدب الرقمي "سوى جزء من الكل، فبالإضافة إلى الكلمات يجب أن نكتب بالصورة والصوت والمشهد السينمائي والحركة"¹، وهذا أعطى " للنص الإلكتروني طاقات إبداعية تختلف عنها في النص الورقي، حيث لم يعد يمكن تشكيل النص بوحدات حرفية فقط بل يتعداه إلى وحدات أخرى كالصورة والصوت، واللون والحركة وغيرها من الوسائط"². ومثلما تغير النص الأدبي في خصائصه ومكوناته مع ظهر الوسائط التكنولوجية كان لزاما "على الروائي نفسه أن يغير، فلم يعد كافيا أن يمسك الروائي بقلة ليحفظ الكلمات على الورق، فالكلمة لم تعد أدواته الوحيدة، على الروائي أن يكون شموليا بكل معنى الكلمة، عليه أن يكون مبرمجا أولا، وعلى المام واسع بالكومبيوتر ولغة البرمجة، وعليه أن يتقن لغة HTML على أقل تقدير، كما عليه أن يعرف من الإخراج السينمائي، وفن كتابة السيناريو والمسرح، ناهيك عن فن animation"³.

إن ترأسل الفنون وتداخلها في الأدب الورقي كان مقيدا في الكلمة التي كانت كما قلنا سابقا المكون الأساسي في النص الأدبي، أما في النص الرقمي فقد أصبح " تمازج الفنون وتزاوجها، للنصوص الإلكترونية قد منح النص التفاعلي أفقا جمالية جديدة، تفتح على مبدأ التكامل الفني والتجانس الإبداعي، بحيث يتشكل فيه هذا الكل المتكامل في جاذبية تجمع جمالية هذه الفنون في فن أدبي واحد"⁴، إن هذا التمازج والتزاوج بين فنون الكتابة والفنون السمعية البصرية باستخدام الوسائط التكنولوجية أنتج لنا أدبا جديدا سمي بالأدب الرقمي أو التفاعلي، بالإضافة إلى مبدع عالم بالمستجدات التكنولوجية والفنون التشكيلية، والسينمائية والموسيقية وكيفية توظيفها في إنشاء نص، وهذا أيضا أدى إلى ظهور متلقي جديد يختلف عن متلقي الأدب الورقي " فالمتأثرات البصرية السمعية المستخدمة تجعل القارئ في حالة من المفاجأة المستمرة، والترقب، إن العصر الرقمي سوف ينتج قارئاً رقمياً حتماً. فقارئ الرواية الرقمية سوف يجد عالماً جديداً، فيه من التقنيات الفنية ما يقابل مع فنون أخرى عبر فنون الكلمة، مثل المونتاج والمكساج والموسيقى التصويرية والإخراج الفني، بالإضافة إلى توظيف تقنيات الكومبيوتر الأخرى"⁵. ففي عصر الوسائط التكنولوجية "لم يعد بإمكاننا أن نطلق على متلقي الأدب تسمية (القارئ إلا جزافاً) فلم يعد يصل إليه النص الأدبي اعتماداً على القراءة وحدها فهناك الكثير من العلامات المتاحة الأخرى التي ستسهم بفاعلية في بناء فهم النص أبرزها ما نتيجته الوسائط الرقمية المتعددة من الصورة والصوت والحركة"⁶. ومما سبق يمكن طرح الأسئلة التالية: كيف تشكل الأدب الرقمي عبر الشاشة الزرقاء؟ وهل يختلف قارئ الأدب الرقمي أن صح التعبير عن قارئ الأدب الورقي؟ وما هي الميزة التي أعطتها الوسائط التكنولوجية للمتلقي؟

أشكال القراءة:

قبل ظهور الوسائط التكنولوجية " استخدم الناقد الفرنسي "جيرار جنيت" مصطلح "المتعاليات النصية" للإشارة إلى مختلف العلاقات بين النصوص وجعل من الإمكانيات التي تندرج تحته "التعلق النصي" و"التناص" وهما

¹ - السيد نجم، النشر الإلكتروني والإبداع الرقمي " رؤية حول الأدب الجديد"، سلسلة الثقافة الرقمية والهيئة العامة القصور الثقافية، مصر، 2010م، ص:36.

² -صفية علي، افاق النص الادبي ضمن العولمة، اطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم، تخصص: أدب جزائري، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة: محمد خيضر بسكرة، 2014/2015م، ص:197.

³ -جمال قالم، النص الادبي من الرقمية الى الورقية " آليات التشكيل والتلقي"، اطروحة لنيل شهادة الماجستير، معهد اللغات والادب العربي، جامعة ألكلي محمد اولحاج، لبويرة، الجزائر، 2008/2009م، ص: 90.

⁴ -صفية علي، النص الادبي ضمن العولمة، ص:195.

⁵ -السيد نجم النشر الإلكتروني والإبداع الرقمي " رؤية حول الأدب الجديد"، ص:36.

⁶ -ثائر عبد المجيد العذاري، الادب الرقمي والوعي الجمالي العربي. ص:85.

مفهومان أساسيان في مجال النقد الأدبي ولكن دخول النص الإلكتروني بقوة إلى السياق المعرفي يدفع المهتمين له _ ومن بينهم يقطين _ الى تبني مصطلح جديد هو "التفاعل النصي" في مقابل المتعاليات النصية والى استخدام "الترباط النصي" في مقابل "التعالق النصي" السبب في ذلك أن العلاقات التي سبق أن أشار إليها جنيت تربط _ في علاقة خطية بين نص لاحق وآخر سابق، وهي علاقة وثيقة الصلة بين النصين الشفاهي والكتابي أما النص الإلكتروني فأدى الى وجود علاقات ومفاهيم جديدة، فالترباط النصي يتجسد في النص الإلكتروني من خلال الروابط التي يتم من خلال النص نفسه ويسمح لنا هذا الانتقال داخل النص وفق ما تستدعيه عملية القراءة.¹

ومن خلال ما سبق يميز سعيد يقطين في كتابه " من النص الى النص المترابط" بين نوعين من نصوص الأدب الرقمي حسب قدرته في تجسيد ظاهرة "التفاعل" إلى بسيط ومركب على النحو التالي²:

1_ النمط البسيط:

يضم هذا النمط أنواعا ثلاثة (التوريقي، الشجري، النجمي) وهو بسيط لأنه أقرب إلى الكتاب المطبوع، فهو يخضع لبنية شبه خطية ولمسارات مضبوطة محددة، كما أن الروابط فيه محدودة ومقيدة بقيود دلالية ومنطقية أو سببية أو ما شاكل ذلك من العلاقات التي تتحدد بواسطتها الصلات بين العقد.

أ_ التوريقي: وسمي هذا النوع بالتوريقي أو قلب الصفحات في الكتاب المطبوع. وإذا اعتبرنا صفة الكتاب مثل الصفحة التي تظهر على الشاشة، فإن الانتقال الى الصفحات الأخرى لا يتم إلا من خلال: النقر على أسفل الصفحة التي تكون على صورة مثلث صغير، او ايقونة تمثل سهمها أو يدا تشير سبابتها إلى إتجاه الصفحة، أو النقر على مثلثين متقابلين يشير أحدهما الى الصفحة السابقة وآخر إلى الصفحة التالية. وفي هذا النوع يكون التفاعل محدودا جدا لأنه يأخذ صورة نظام الكتاب الورقي للانتقال من صفحة إلى أخرى، او الانتقال في جسد النص من خلال النقر على احد مكونات الخارطة او لائحة عرض المواد.

ب_ الشجري: يقدم هذا النوع من النص المعلومات على مستويات تأخذ بعدا تراتبيا يبدأ من الأصل ويتحدر نحو الفروع المنضوية تحته. ويسمح هذا النوع للقارئ بأن ينتقل في تراتبية المادة بحسب المسار الذي رسمه له المؤلف، وذلك بالتحويل من مستوى أعلى الى آخر أدنى، أو بالعكس إذا لم يرد القارئ مراعاة ترتيب المواد، ويبني النظام الشجري على شاكلة فهرست الكتاب الورقي.

ج_ النجمي: يخذ هذا النوع صورة النجم الذي يقع في محور دائري، وتدور في فلكه نجوم أخرى. ويكون هذا النوع عادة في النص المترابط ذي البعد التعريفي أو القائم على دلالات الكلمات أو المفاهيم، حيث يتم ينظر في مجموعة من المفاهيم في ضوء مفهوم جامع ينظمها كلها. فيغدو المفهوم المركزي بمثابة عقدة مركزية منفتحة على عقدة فرعية. يقوم المستعمل بالنقر على الكلمات المترابطة فيحصل على معلومات إضافية³.

2- النمط المركب:

ويضم أنواعا ثلاثة (التوليقي، والجدولي والترباطي او الشبكي)، وهو النص الذي تتحقق فيه السمات الجوهرية للنص الإلكتروني الجدير بهذه الصفة، فعدد روابطه لا حد له، وهو منفتح على كل المكونات، ويسمح للقارئ بأن يتفاعل معه بصورة لا نجد لها في أي نص آخر.

¹ - الهام بوطوب، سعيد الوكيل، الادب التفاعلي وجماليات التلقي، ص: 11-12.

² - ينظر، سعيد يقطين، من النص الى النص المترابط "مدخل الى جماليات الابداع التفاعلي"، ط:1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005م، ص: 142.

³ - ينظر، سعيد يقطين، من النص الى النص المترابط "مدخل الى جماليات الابداع التفاعلي"، ص: 136-138.

أ-النص التوليقي: يقدم النص المترابط التوليقي بنية معمارية مركبة لا تخضع لأي نظام خطي قابل لأن نتبع مساراته. فهو يتضمن عددا محدودا من العقد. ومجموع المسارات الممكنة التي يتكون منها تشكل تخطيطا محدودا. ويتيح التوليف المتعدد مجموعة من الروابط التي تعطي للمستعمل امكانيات متعددة للاختيار والإنتقال. وهذا النوع يقدم احتمالات للتفاعل لأن على المستعمل أن يختار بنفسه الإتجاه الذي يسير فيه من بين إتجاهات متعددة.

ب-النص الجدولي: ونجد هذا النوع في قراءة بعض الروايات التفاعلية وذلك من خلال واجهة موقع لاندو LANDOW التي تتكون من 15 خانة كل واحدة تنفتح على عالم كبير ومعقد. وهذا النوع يتيح للقارئ اختيار الخانة التي سينتقل منها من خلال النقر على عنوانها، فتتفتح له عقدة، وانطلاقا منها يمكنه أن ينتقل بين عقد النص، ويظل الجدول هو دفة الانطلاق والرجوع لكي لا يضيع المتلقي وسط متاهات النص.

ج- النوع الترابطي او الشبكي: يتصف هذا النوع بأنه الأكثر تفاعلية ودينامية وتشعبا، إنه يتميز عن غيره بالترابطية الشاملة إذ هي السمة التي تحدد مجمل العلاقات بين كل أجزاءه المختلفة. ويجسد هذا النوع البعد الافتراضي للنص المترابط لأن المستعمل يمكن ان يتحرك بين العقد المختلفة حسب اختياره. ويبدو ذلك بسبب كون أي عقدة فيه مهما كان حجمها تتيح إمكانية الوصول إلى عقدة أخرى. ونجد بعض المتخصصين يعتبر هذا النوع هو الذي يجسد لنا النص المترابط بامتياز¹.

ويذهب كل من "حسام الخطيب" و"فاطمة البريكي" إلى تقسيم النصوص الإلكترونية حسب تفاعل المتلقي معها الى قسمين على النحو التالي:²

1-النسق السلبي: هو ذلكالنص المصمم من لدن الخبراء لتقديم مادة مضمونية محددة ويكون مغلقا في وجه أية تعديلات على يد المتلقي الذي يتجول بين عقده وروابطه من غير أن يترك له خيار في تغيير أي شيء على مستوى التقديم والتأخير، أو الحذف والإضافة، والمتلقي في هذه الحال. والنسق السلبي يمثل نسخة إلكترونية لأخرى ورقية ويمكن قراءتها الكترونيا وورقيا من غيران تتأثر ملامحة.

2_النسق الإيجابي: وهو المبدع لاستدراج المتلقي، وجعل الفرصة سانحة لهفي التعديل والحذف فضلا عن التغير في الروابط والعقد النصية، وهذا النسق يمكن أن ينقل عملين تأليف النصوص نقلة نوعية من التأليف الفردي والتأليف الجماعي.

أن هذا النوع الثاني هو الذي يمكن أن يطلق عليه "الأدب التفاعلي" فالمتلقي "لم يعد يتتبع مسارا مقترحا عليه سلفا، بل هو سيد العملية الإبداعية. هو المؤلف أيضا للعمل الإبداعي بما يقترحه عليه هذا العمل من الاختيارات و مسارات. إذ يتعامل مع النص الرقمي بصورة لا خطية ولا نمطية، يختار البدايات ويكتب النهايات ويشارك في عملية تأليف هذا العمل، فالأدب التفاعلي يستقي مقولاته من المشاركة الفعالة للقارئ الذي بيده تحديد الدلالات من خلال نقره لمختلف الأيقونات وتجوله بينها والمتلقي هو الذي يوجه المؤلف والناقد للدلالات الممكنة تشكيلها من خلال القراءات التي ينحوها. ويجسد هذا البعد التفاعلي بوضوح كون المؤلف والمتلقي معا يشتركان في إدراك خصائص النص أي أنهما يوجدان في مرتبة واحدة على هذا المستوى، وإذا حصل تفاوت فهو الذي يقع عادة بين المبدع (الانجاز) والمتلقي (الكفاءة) وكلما انعدم الاشتراك استحال التفاعل."³

¹- ينظر، سعيد يقطين، من النص الى النص المترابط، ص ص: 138-140

²- عادل نذير، عصر الوسيط "ابجدية الايقونة" دراسة في الادب التفاعلي-الرقمي، ط:1، كتاب ناشرون، لبنان، 2010م، ص: 26.

³- ينظر، خديجة باللودمو، نظرية التلقي والادب الرقمي "حفر في نقاط الاتفاق"، مجلة جيل للدراسات الادبية والفكرية، ع:4،

ديسمبر، 2014، ص ص: 124_125.

بالإضافة الى كون المتلقي هو محور الإبداع في الأدب التفاعلي فإنه " هو الذي يرسم سيرورة المعاني ولا يوجد طرف آخر يشاركه الدور حتى المؤلف لا دخل له في تحديد المعاني _ من هنا يمكننا أن نتأكد من ضرورة الاعتراف بدور المتلقي في المنظومة الإبداعية، فهو لم يعد مجرد ضيف عابر على النص، بل هو السيد وحاكم دلالاته والمعنى لا يكشف إلا للقارئ ولا يتجسد إلا كما شكله في ذهنه، ولا قيمة للمعاني التي يعطيها المؤلف لنصه ولا أهمية مقصده في تحديد المعنى." ¹ فمعنى النص التفاعلي يحدده المتلقي وتتعدد معانيه بتعدد قرائه فهو يتغير من قارئ آخر بحسب المسار الذي يسير فيه ويختاره في قراءة هذا النص وفي تحديد نهايته.

مع ظهور الأدب الرقمي أو التفاعلي أصبح لدينا أدب عابر للأجناس ونصا متكاملًا باستخدام الوسائط التكنولوجية من صورة وموسيقى وصوت وإضاءة وفلاش وإخراج وتركيب ومونتاج ... هذا التماهي مع التكنولوجيا أضفى خصوصية نوعية وسماتية على هذه النصوص الجديدة ذات الطابع التفاعلي.

هذا التوظيف وهذا الانفتاح الحواري جعل من المنتج نسقا مفتوحا يتسم بالفاعلية وبالطابع الديناميكي والإيقاع الدرامي المتنوع، ويمكن القول أن هذا الانزياح التشكيلي واللعب التقنياتي والتنوع الجمالي أدى إلى كسر أفق التوقع وتحطيم رتبة التلقي وإدهاش القارئ بهذه النمذجة النصية والهندسة التشكيلية، مما فرض نوع جديد من التلقي والذائقة القرائية وقارئ آخر ذو تكوين وخلفية ووعي جمالي مختلف عن ما هو معهود لدى القارئ النمطي.

الإحالات والهوامش:

- 1- ثائر عبد المجيد العذاري، الادب الرقمي والوعي الجمالي العربي، مجلة آداب الفراهيدي، ع: 2، ص: 86.
- 2- فاطمة البريكي، مدخل الى الادب التفاعلي، ط: 1، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، 2006م، ص: 181.
- 3 - السيد نجم، النشر الإلكتروني والإبداع الرقمي "رؤية حول الأدب الجديد"، سلسلة الثقافة الرقمية والهيئة العامة للقصور الثقافية، مصر، 2010م، ص: 36.
- 4 - صافية علي، أفاق النص الأدبي ضمن العولمة، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم، تخصص: أدب جزائري، كلية الآداب واللغات، قسم: الآداب واللغة العربية، جامعة: محمد خيضر بسكرة، 2014/2015م، ص: 197.
- 5- جمال قالم، النص الأدبي من الرقمية الى الورقية آليات التشكيل والتلقي"، أطروحة لنيل شهادة الماجستير، معهد اللغات والآداب العربي، جامعة أكلي محمد اولحاج، البويرة، الجزائر، 2008/2009م، ص: 90.
- 6 - صافية علي، النص الأدبي ضمن العولمة، ص: 195.
- 7- السيد نجم، النشر الإلكتروني والإبداع الرقمي " رؤية حول الأدب الجديد"، ص: 36.
- 8- ثائر عبد المجيد العذاري، الأدب الرقمي والوعي الجمالي العربي، ص: 85.
- 9 - الهام بوطوب، سعيد الوكيل، الادب التفاعلي وجماليات التلقي، ص: 11-12.
- 10 - ينظر، سعيد يقطين، من النص الى النص المترابط "مدخلا لجماليات الإبداع التفاعلي"، ط: 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005م، ص: 142.
- 11- ينظر، سعيد يقطين، من النص إلى النص المترابط " مدخل الى جماليات لإبداع التفاعلي"، ص: 136-138.
- 12 - ينظر، سعيد يقطين، من النص الى النص المترابط، ص: 138-140.
- 13 - عادل نذير، عصر الوسيط "ابجدية الايقونة" دراسة في الأدب التفاعلي - الرقمي، ط: 1، كتاب ناشرون، لبنان، 2010م، ص: 26.
- 14- ينظر، خديجة باللودمو، نظرية التلقي والأدب الرقمي " حفر في نقاط الاتفاق"، مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، ع: 4، ديسمبر، 2014، ص: 124_125.
- 15 - السابق، ص: 128.